الفـروسية

أصول الفروسية

« من الطريف أن يكون الشعر العربى ، أثناء الحروب الصليبية ، قد أدى — ولست أدرى بأى تأثير خفى — إلى تكوين المثل الأخلاق الأعلى لفرسان فرنسا . »

جول لميتر

هناك بين كلمات اللغة الفرنسية كلمة نبيلة ، عريقة الأصل ، سامية المعنى ، تلك هى كلمة : الفروسية . فما يستطيع أن ينطق بها الناطق دون أن يختلج بالتأثر ، لأنها تسجل تطورا عميقا فى أخلاق البشر وعواطفهم .

ولن نحاول أن نعرّف « الفروسية » . فهى طائفة من الأفكار والعواطف والنظم ، هيهات أن تحتويها صيغة واحدة . إنها تحمل فى أول أمرها طابع منظمة دينية — بل لنكاد نقول كهنوتية — إذ قد أوحى بها الكهنة ، ووجهوها فى سبيل الدفاع عن المسيحية . ولكنها لم تلبث حتى تحررت من وصاية القسيسين والرهبان عليها ، وأصبحت عالمية شهمة إنسانية ؛ فقد وسعت مجال نشاطها النبيل منذ القرن الثانى عشر ، ولم تقتصر على

حماية الكنيسة ، بل جعلت من نفسها ناصر الضعيف على القوى ، ومنصف المظلوم من الظالم. وحيثما ولت المنظمة وزالت ، بقيت « الفروسية » ؛ ولم تبق مزية للفرسان وحدهم ، بل غدت تراث الفرنسيين جميعا . ومنذ ذلك الحين ، أصبحت فرنسا بأسرها — لا بضعة من أبنائها — هى التى تنهض بمهمة الدفاع عن مصالح المسيحيين فى بلاد الإسلام ، وحماية الضعاف طرا ، وعقاب الجور أينما طغى ، وتولى أمر كل قضية عادلة أو كريمة حتى تفوز وتنتصر .

ولذلك فإن كلمة الفروسية لا تثير ذكرى شرلمان وأقرانه الاثنى عشر فحسب ، ولا ذكرى الحروب الصليبية وواقعة « فونتنوا » أو استقلال أمريكا وحروب الثورة الفرنسية كذلك ، ولا إعتاق اليونان وتحرير إيطاليا أو ملاحم « المارن » و « فردان » فقط ، بل إنها تثير — مع كل هذا — ذكريات الاستبسال العفيف ، والتضحية الفردية والجماعية — من أجل مبدأ — وإغاثة الملهوف ، وعقيدة الشرف ، وإجلال السمو الأخلاقى ، كما تثير فى النفس معانى السماحة الباسمة وسط المخاطر ، والرقة التى تلازم القوة ، والتودد والكرم فى معاملة العدو . . .

* * *

والذى يميز « الفروسية » من الحضارة اليونانية والرومانية هو تفتح وازدهار عواطف جديدة ، لم تكن معروفة لدى القدماء، مثل عاطفة الشرف ، التى تفرض على المرء ألا يراوغ فى أداء الواجب ، أو يحسب

حساب الخطر ، وأن يغسل العار بالدم ، ومثل الوفاء بالوعد الذى يدفع المرء إلى إيثار الموت على إخلاف ما قطع من عهد ، ومثل حماية الضعيف والمظلوم حماية لا يمليها غرض ولا انتفاع ، ومثل مراعاة جانب الإنسانية أثناء القتال وتوخى الكرم بعد الغلبة ، ومثل احترام المرأة ، وأخيراً هذا الطابع الذى اتسم به الحب ، فبعد أن كان الحب يعرض للرجال طارئا بسيطا ، أمسى مرهفا صوفيا ، وأصبح غاية سعيهم وحافزه . على أن هذه الصفات المميزة للفروسية من شأنها أن توجد — فى صورة بدائية أو كاملة التطور — فى أجواء متباينة وفى عدد من البلاد عبر مختلف العصور : لدى العجم والعرب ، ولدى أهل اسكندیناوة والجرمان ، هذا إذا لم نذكر اليابانيين ومحاربى سومطرا وقبائل « الماورى » فى زيلندة الجديدة . . . وهنا يحق التساؤل عما إذا كانت الفروسية نزعة طبيعية من نزعات النفس الإنسانية ، أم قد استعارتها من شعب معين شعوب أخرى . وبعبارة أخرى ، ما هو أصل الفروسية ؟ هل نبتت فطريا فى الروح وفى الأرض الفرنسية ، أم ترى قد استقت شرائعها ومثلها الأعلى من منهل أجنبى ؟

وليكن سؤالنا أولا : فى أى عصر ظهرت « الفروسية » فى فرنسا ؟

ويجيب عن هذا السؤال أصحاب التاريخ وأصحاب الأدب إجابات متباينة متناقضة ؛ فالفروسية تنتمى إلى الشعر بقدر ما تنتمى إلى التاريخ أو أكثر ، ما دامت هى حلما من أجمل ما راود الفكر الإنسانى ، وما هى بعد كل شىء إلا انطلاق مدعّم نحو المثل الأعلى . . انطلاق تؤازره شجاعة

المقاتلين وعزيمتهم أقل مما تؤازره روعة الشعراء وعبقريتهم . فمن الكتاب من يصعد بالفروسية إلى عصر « الميروفنجيين » بل وإلى ما قبله ، أى إلى عهود لم تكن هذه المنظمة معروفة فيها بعد ، كما يلاحظ ذلك الأستاذ « دى سانت بالاى »[1] ومنهم من يرجعها إلى زمن الحروب الصليبية[2] . ويحدد شاتوبريان مولدها خلال حقبة تقع بين سنة ٧٠٠ وسنة ٧٥٣[2] ، على حين يذكر « س . دى سيسموندى » أنه « كلما أمعن المرء فى دراسة التاريخ ، رأى أن الفروسية تجديد يكاد أن يكون برمته شعريا ؛ فالباحث لا يصل قط عن طريق الوثائق الأصلية إلى تحديد البلد الذى كانت سائدة فيه ، فهى دائماً صورة مرسلة من بعيد . وبينما يبسط لنا المؤرخون فكرة جلية مفصلة كاملة عن رذائل حياة البلاط حول الملوك والأمراء ، وعن استعباد الشعب ، فإنه يدهشنا أن نرى الشعراء بعد فترة من الزمن ، يبعثون تلك القرون بعينها متلألئة بخيالات كلها من وشى الفضائل ورقيق الشمائل والولاء »[3] .

---

(١) لاكورن دى سانت – بالاى (Lacurne de Sainte-Palaye) : مذكرات عن الفروسية القديمة ، الجزء الأول ، تعليق (١) من القسم الثانى .

(٢) انظر جان – جاك أمبير (J.-J. Ampère) : منوعات من تاريخ الأدب ومن الأدب ، الجزء الأول ، ص ٢٤٨ وما يليها .

وبارتيلمى سانتيلير (Barthélemy Saint-Hilaire) : محمد والقرآن .

(٢) شاتوبريان (Chateaubriand) : تحليل وشرح لتاريخ فرنسا ، ص ٣٨٦.

(٣) س . دى سيسموندى (S. de Sismondi) : فى أدب جنوبى فرنسا، الجزء الأول ص ٩٠ ، ٩١ .

وليست مشكلة التأريخ وحدها هى التى تثير نزاع الكتاب ، فإن الفروسية فى جملتها ، على الرغم من أنها كانت ، فى عصور مختلفة ، موضع دراسات جدية — ولعلها لهذا السبب ذاته — قد فتحت مجالا شاسعا للنقاش والجدل. فقد نظر إليها كل كاتب من وجهة خاصة ودرسها وفقاً لنزعاته أو عواطفه ؛ فقوم يخلطون بينها وبين الإقطاع ، وآخرون يعتبرونها شرفا موقوفا على طبقة النبلاء دون سواهم ؛ فهى تبدو فى أعين هؤلاء منظمة ثابتة ، ومنهجا أحكمت عقائده وشرائعه ودقائقه واتبعت فى كل مكان بطريقة واحدة ، بينما تبدو فى أعين أولئك — على النقيض — منهجا معقدا من السلوك والمبادئ ، ومثلا أعلى من الكمال الأخلاقى والاجتماعى والعسكرى اصطلح الناس عليه بوجه عام وقد أبيـــح لكل امرئ أن يصبو إليه ، شريفا كان أم صعلوكا . ولم يدع الباحثون حتى كلمة « فروسية » ، فاتخذوا منها مادة دراسات بل وبحوث لغوية لا يتوقعها العقل أحيانا . ألم يتجشم أحد أعضاء مجمع العلوم والآداب والفنون بمرسيليا عناء استنباط كلمة « شفاليرى » — أى الفروسية (Chevalerie) — من « كلمة شروال أو (شلوال) التى يطلقها المسلمون على الإزار الطويل الذى كان من العلامات المميزة للمتبارى أو البطل » ؟[1] .

(١) مذكرات مجمع العلوم والآداب والفنون بمرسيليا. مجلد السنوات ١١٤٨–١٨٥٤ ص ٢٦٧ ، مقالة هـ. جيس (H. Guys) .

ولفظة « شلوال » نقلناها طبق الأصل . وربما كان من المفيد أن نثبت فى هذا المعنى كلمتى « شليل . سربال » . (تحقيق)

لن يدهشنا بعد ذلك إذن أن يقدم لنا الكتاب هذه الفروسية — مدعمين ما يذهبون إليه بأسانيد تاريخية أو شعرية، متينة أو دقيقة — على أنها ذات أصل رومانى خالص[١] ، أو عربى خالص[٢] ، أو جرمانى[٣] ، أو مسيحى[٤] ، بل ويسعى بعض المؤلفين إلى التوفيق بين مختلف العناصر فيكشفون للفروسية أصلا جرمانيا عربيا مسيحيا فى آن واحد[٥] . . .

وتعتمد هذه المناقشات جميعها — فى رأينا — على خطأ أساسى هو دراسة الفروسية باعتبارها وحدة لا تتجزأ ، كأنما هى منظمة ثابتة لا يعتريها تغير ، أو كأنها قوة غلابة قد احتفظت دائماً ، منذ نشأتها حتى زوالها بأشكال معينة ومميزات معينة . وكان الأجدر بنا أن ننظر إليها كعمل إنسانى قابل للتبدل والتحول والتطور . ولقد أسلفنا أن الفروسية مجموعة

---

(١) الأب أونوريه دى سانت — ماري (Père Honoré de Sainte-Marie) : مقالات تاريخية ونقدية فى الفروسية القديمة والحديثة .

(٢) أ. دى بومون (A. de Beaumont) : أبحاث فى أصل الشعار. ج. دلكلوز (J. Delecluse) : رولان والفروسية . ل . فياردو (L. Viardot) تاريخ العرب والأندلسيين.

(٣) أ . دى بارتيلمى (A. de Barthélemy) : فى نعت الفارس
لاكورن دى سانت — بالاى (Lacurne de Sainte-Palaye) : مذكرات عن الفروسية القديمة

(٤) جوتييه (Gautier): الفروسية .

(٥) انظر كتابى أمبير وشاتوبريان السابق ذكرهما — وهردر (Herder) : أفكار فى فلسفة التاريخ ، ترجمة كينيه (Quinet)

من الأفكار والأخلاق والعواطف والنظم ، وهذه المجموعة لم تمسك لحظة عن التبدل والتطور عبر القرون . وهكذا تعددت المراحل ، وتعددت التحولات ، بل ويمكننا أن نقول أيضاً وتعددت « الفروسيات» . فينبغى إذن أن نقف لدى كل مرحلة من هذه المراحل لنحدد تاريخها ، وأن ننظر فى كل تحول طرأ لنستقصى أسبابه ، وأن ندرس على حدة كل فروسية من هذه الفروسيات المتتالية ، ثم ندرسهن جميعاً إذا أردنا أن نخرج بفكرة كاملة عن الفروسية .

على أن هذا ليس هو الغرض الذى نرمى إليه ، وإنما يكفينا أن نبحث عن التأثيرات التى تولت خلق الفروسية وتنميتها ، حتى نجتلى أصولها :

فمعجمات اللغة تعرف الفروسية بأنها : « منظمة عسكرية إقطاعية خاصة بطبقة الأشراف ، قد نذر أعضاؤها على أنفسهم نذرا دينيا » وهذا تعريف غير دقيق ، لأن كل فارس كان يستطيع أن يمنح سواه الفروسية ، كما كان لغير الأشراف أن ينصّبوا فرسانا ؛ وهو فوق ذلك تعريف ناقص ، إذ لا يراعى فى الواقع غير هيكل الفروسية الخارجى ، مهملا نفحة الروح التى تبعث فيها الحياة ، على حين أن التمييز بين المنظمة — أى الشكل الظاهرى للفروسية — وبين الفكرة والروح والعواطف التى تنبض بها ، أمر جوهرى لاستبانة أصولها ، « فكثيرا ما خلط القوم بين تنصيب الفرسان وبين الفروسية ذاتها »[1] .

---

(١) لاكورن ، الجزء الأول ، ص ١٢ ، تعليق ١٤ .

ولقد رأى معظم الكتاب — معتمدين على نص من نصوص « تاسيت » — أصل الفروسية فيما اعتاده الجرمان من تقليد الرمح والدرع فى احتفال رسمى للفتى المتقدم الذى قد اعترف له بالقدرة على حمل السلاح[1] . على أن الاحتفال الذى يتحدث عنه « تاسيت » كان مما يقام فى فرنسا منذ عهد شرلمان بل ومنذ عهود الملوك السابقين — وهذا مما يعلل رجوع بعض المؤرخين بالفروسية إلى عصر « الميروفنجيين » — إلا أن صورة هذا الاحتفال قد تغيرت فيما بعد . فالحفل العسكرى البسيط قد أصبح حلقة دينية صوفية . فلقد كان الأمر أولا ، أن المحارب الفتى يسلحه أميره أو أبوه الذى كان يعطيه الـ « كوليه » (La Colée) أى صفعة عظيمة بالكف على قفاه . ولما كانت الكنيسة فى ذلك العصر تتدخل فى كل أفعال الحياة ، فقد تدخلت فى هذا الفعل الذى يصنع الفارس ، وأحلت العناق محل الصفع ، وأضافت إلى الحفلات الهمجية شعائر دينية لم تلبث حتى أبدلتها منها (كالصوم والتهجد ومناسك التوبة والتناول يؤديها الفتى فى ورع ، والاستحمام الذى يمثل تطهير المعمودية ، وارتداء الثياب البيض أسوة بالداخلين فى الدين ، وأخيراً مباركة السيف بصلاة الكاهن وتسليمه بعد تقديسه ، للفتى الشريف . .)

وأما عن منظمة الفروسية ، فينسبها صاحب كتاب « فلسفة تاريخ البشرية » إلى الأصل التالى، وهو ما يبدو لنا أكثر الآراء صحة ووجاهة :

---

(١) تاسيت (Tacite) : أخلاق الجرمان ، الفصل الثالث عشر .

يقول هردر : « كانت جميع القبائل الجرمانية التى ملأت أوربا تتألف من محاربين ، وكان أهم قسط من الحملات هو ذلك الذى يقوم به الفرسان ، فكان من الطبيعى أن يطمحوا إلى جزاء يتناسب وخدماتهم . وسرعان ما تشكلت هيئة من الفرسان أتقنت فنها فى نظام منهجى ؛ فألف رفاق الدوق أو الملك أو قائد الجيش فى المعسكرات شيئا فشيئا ما يشبه مدرسة حربية كان أتباعهم يبدءون فيها التدرب . فإذا برّز هؤلاء ، استطاعوا أن يعلموا بدورهم تلاميذ آخرين ، بوصفهم قدماء لهم حقوق الأساتذة. ومن العسير أن يكون لمنظمة الفروسية غير هذا الأصل »[1].

تلك هى أصول « الفروسية » باعتبارها منظمة عسكرية . وقد يكون الاحتفال بتسليح المحارب الفتى أو انخراط الفرسان فى سلك جماعة مصطفاة ذات امتيازات ، مما يرجع إلى أصول جرمانية ، ولكنا نتورط فى الخطأ ونخلط بين الهيكل الجامد والروح التى تحييه ، وبين السيف واليد التى تنتضيه ، إذا زعمنا أن الفروسية — بوصفها عبادة الجمال الأخلاقى — شىء أبدعه الجرمان . فإن العقل السليم والتاريخ ليأبيان مثل هذا التأكيد .

لقد « كان الجرمانى — وقد استسلم لغرائزه الفطرية قبل أن تشحذها المبادئ وقبل أن تنظمها الواجبات — رجلا أنانيا ، قاسياً ، يحب الانتقام والاغتصاب ، وكان دينه — وهو الخشوع لقوى الطبيعة أو تأليه الشجاعة

---

(١) هردر : أفكار فى فلسفة التاريخ (ترجمة ادجاركينيه) ، الجزء الثالث ص٤٣٦ .

الحربية — يسبغ على الوحشية معنى القضاء الإلهى . وكان تاريخ آلهته قصص عراك وقتل ، وكان خير ما يقدم إليهم من قربان ، وخير ما يستدر به رضاهم ، ذبائح بشرية ؛ وأما الفردوس الذى وعدت به الآلهة هؤلاء المحاربين فقد كان ميدان قتال لا ينقطع فيه سيل الدماء ، وفيه يشرب المرء فى جمجمة عدوه . ولم يكن مثل هذا الدين مما يرقق النفوس »[1] بل لعله من الممكن القول بأن أى دين لم يكن مستطيعا أن يرقق نفوسهم ؛ فإنه على الرغم من اعتناقهم المسيحية — فيما بعد — ، قد ظلت تغلب عليهم النزعة الدينية الأولى ، ومضوا يعبدون القوة .

ودونكم تاريخ ألمانيا فى العصور الوسطى ، حينما كانت الفروسية الأوربية فى أوجها ، فهل تجدون فيه سوى سلسلة طويلة من المذابح وضروب النهب والإجرام والتخريب ؟ لقد سجل المؤرخ التيوتونى « سيزار دايستر باخ » (César d'Heisterbach) أن « الأمراء والبارونات كانوا لا يرون حرجا فى الحنث بأيمانهم »[2] . ورسم لنا « بورخارد دورسبرج » (Burkhard d'Ursperg) — بعد أن نبهنا إلى أن معظم البارونات والفرسان كانوا لصوصاً — هذه اللوحة الموجزة لألمانيا فى القرن الثالث عشر بقوله : « فى كل مكان رجال طغاة ، قساة نهاشون ، جشعون مسرفون ،

---

(١) منييه (Mignet) : مذكرات أكاديمية العلوم الأخلاقية والسياسية ، الجزء الثالث سنة ١٨٤١ : « كيف دخلت جرمانيا القديمة فى المجتمع المتحضر لأوربا الغربية » .

(٢) زيلر (Zeller) : تاريخ ألمانيا ، ص ٥٧٥ .

متجبرون فى طرق الكسب والسلب ، لا يخضعون لغير شهواتهم ، يدوسون العدالة بأقدامهم ، ويتنازعون المنافع والمناصب بالدسيسة والخبث ، وبالاغتيال إذا اقتضى الأمر . . . »[1] .

وهذا هو « هردر » — على الرغم من أنه ألمانى — يلاحظ ملاحظة ضمنية ، هى أن الفرنسيين كانوا أساتذة التيتون فى الفروسية ، إذ يقول : « عندما هرعت جميع الأمم إلى فلسطين وكأنها تهرع إلى مهرجان كبير ، اتصل فرسان ألمانيا بفرسان فرنسا ، فتجردوا شيئا فشيئا من عنفهم التيوتونى »[2]

وخلاصة القول فإن الفروسية — بوصفها منظمة عسكرية — تنبت جذورها من عادة جرمانية عتيقة هذبتها الكنيسة وأحاطتها بالطقوس المتبعة فى القرون الوسطى .

ولنبحث الآن عن العواطف التى أدت إلى خلق روح الفروسية ونموها .

فى المجتمع الهمجى والمجتمع الإقطاعى « وما هو فى الواقع إلا مجرد تطور للعرف الجرمانى من ناحية معينة »[3] يقوم الحق على أساس القوة .

---

(١) زيلر : المرجع السابق ، ص ٦١٠ .

(٢) هردر : المرجع المذكور ، ص ٤٤٩ .

(٣) أوجستان تيير ى (Augustin Thierry) : قصص من عصر الميروفنجيين ، ص ١٩٠ .

فالمثل الأعلى للمحارب ، أن يكون شديد البأس مغوارا كشرلمان الذى يصوره المؤرخون القدماء بأنه يستطيع « بضربة واحدة من سيفه أن يشق المحارب — الراكب المدجج فى سلاحه — من قمة رأسه إلى أخمص قدميه بما فى ذلك الحصان » ، وأن تكون أولى صفاته الشجاعة ، حتى « لقد كان أى سب يوحى بالانتقاص من شأنها ، يوجب العقاب ويقتضيه ، فنبز الرجل بأنه أرنب مثلا أو طفل قذر ، كان يستتبع تعويضاً قدره ثلاثة دراهم ذهبية أو ستة »[1] .

ولكن عندما اجتمع عدة محاربين تحت إمرة رئيس واحد ، أصبح من الواجب إقامة رادع لحدة طباعهم المتحفزة للقتال وتوجيهها نحو الغرض المنشود فقط ، من غزو أو اغتنام . ولقنوا منذ ذلك الحين أخلاقا إقطاعية ، أو بالأحرى ، ولاء التابع للمتبوع — أى عدم خروج المرءوس على الرئيس ، ورعاية الرجل لما عاهد عليه السيد وأصحابه . ومقابل هذا كان على الرئيس أن يحترم ما التزم به أمام رجاله . وأصبح القانون الأعلى هو « العهد » فالرجل الولى (legalis = loyal) هو الذى يحفظ العهد ، والرجل المخلص (Preux = Probus) هو الوفى المقدام فى آن واحد »[2] . وينبغى أن نلاحظ أن الولاء هنا ليس إلا ولاء نسبيا فهو لا يتعدى

---

(١) شاتوبريان : دراسات تاريخية ، الدراسة السادسة : « أخلاق البرابرة » .

(٢) لافيس ورامبو (Lavisse et Rambaud) : التاريخ العام ، الجزء الثانى ، ص ٦٠ .

علاقات السيد برجله والزميل بزميله ، ولكن ذلك كان على أية حال خطوة إلى الأمام .

ولقد أتاحت شريعة الوفاء هذه للسيد — عندما يبلغ مرحلة الشيخوخة — أن يبيت فى مأمن مما يمكن أن يوجه إليه من ضربات ، زميل له أشد منه قوة وأعظم بأسا . وامتدت فيما بعد آثار هذا الوفاء، فشمل العهد جميع ما يخص السيد ، من أرض وزوجة وأبناء . وكانت سنة الشرف تقتضى المقاتل الذى قد صار فارساً ، أن يجلّ قرينة سيده وأن يمنع ولد سيده ويحميه ، إذ هو أضعف من أن يدافع عن نفسه . . .

وتدخلت الكنيسة إذ ذاك لتوسع للفارس أفق مثله الأعلى ؛ فحولت الشراسة الهمجية إلى شجاعة واستبسال ، ووضعت الوفاء الدينى فوق وفاء الفتى لمولاه — فأصبح على المرء ألا ينقض وعده قط ، وأن يتجنب الكذب — وأفسحت أفق الحماية الواجبة لزوجة السيد وولده فشملت جميع المستضعفين والمظلومين ولا سيما الكنيسة ، وحضّت على الجود والاعتدال . . .

ولكن التحمس للدين — ولعله قد فتر أو بدا ضيق الأفق — لم يعد ، قرب القرن الثانى عشر ، غاية الفارس الوحيدة . فقد لحق بعمل الكنيسة التحضرى تأثير العرب التحضرى أيضا ، وقامت إذ ذاك فروسية حرة اجتماعية : تنصرف بعض الشىء عن الدين وتضع المروءة والمودة فوق كل اعتبار ، ثم لم تلبث أن أثارت سخط الكهنة ، وخاصمتهم . ولقد كان

الحب وإغاثة الملهوف وتعظيم الشرف الحربى هو روحها وحافزها ومثلها الأعلى .

تلك — فيما نرى — هى العواطف التى أدت إلى نشأة روح الفروسية ونموها فى العالم الغربى ، وهى عواطف يمكن إيجازها فى كلمة واحدة : « الحضارة » . فلو أن النظام الإقطاعى لم يوجد ، لنبتت الفروسية من تلقاء نفسها ونمت فى بعض أقطار أوربا ، ولما فات فرنسا أن تتأدب بآدابها حتى ولو لم تكن قد دانت بالمسيحية . والدليل على ذلك ، أننا نجد الفروسية قائمة بين شعوب مختلفة العقائد ، متباينة النظم السياسية . وهذا يعنى أن الفروسية نزعة كامنة فى طبيعة النفس الإنسانية ، وطموحها للمجد ، وفى عواطف الحب ، تديرها وتنظمها آداب مهذبة مصقولة . « إنها تولد مع الشعور بالقوة الشخصية لدى الأجناس الممتازة ، ولسنا نعنى القوة الغاشمة بل القوة الناتجة عن عنفوان طبيعى يخضعه عقل متسلط »[1] .

إنها نواة النبل الأخلاقى التى أودعها الله أعماق القلوب ، فهى توق النفس إلى الخير ، إلى المثل الأعلى ، إلى الله . وإذا كان الإنسان — كما قيل — روحاً إلهياً قد هوى وما زال يتذكر السموات ، فإننا نستطيع أن ننظر إلى الفروسية على أنها تحقيق فاضل لهذه الذكرى السماوية .

فليست الفروسية الفرنسية إذن — كما يقول الكتاب — ذات أصل

---

(١) فيوليه لدوك (Viollet-le-Duc) : معجم الأثاث ، الجزء الخامس ، ص ٦ .

جرمانى أو إقطاعى أو رومانى ولا مسيحى أو إسلامى كذلك . . بل هى فرنسية . . وإن كان لا يعنى هذا أنها لم تتأثر بحضارة العرب . وتوضيح هذا ، أن الشرق والغرب عندما تلاقيا — فى رونسفو أو فى أسبانيا ، فى فلسطين أو فى مصر — كانت الفروسية قد نبتت بالفعل فى فرنسا شجرة أو شجيرة أو برعما . غير أنه كان لهذا التلاقى آثار ونتائج لعل أهمها ، ما أضفى على الفروسية من دقائق بارعة ، من ألوان الرقة الرائعة والأناقة النبيلة. فالبذرة قد نبتت — ولا شك — فى أرض فرنسا ؛ أما أنها قد قامت بعد ذلك أكثر سرعة وأصلب عودا . . وأما أنها قد أشرقت بزهر أروع وتضوعت بشذى أرق وأطيب — فإنما الفضل فى ذلك كله لشمس الشرق وصبا نجد . وذلك ما سنحاول الآن تبيانه .